

جرس المدرسة

حمادة حامد محمود نور الدين

في أطراف قرية «الشيخ مسعود»، كانت هناك مدرسةٌ ابتدائية مهجورة منذ عشرين سنة. جدرانها متشقّقة، وسبّورتها السوداء بلا طباشير، ونوافذها بلا زجاج. غير أنّ جرسها النحاسي ما زال معلّقاً في ساحتها تحت شجرة النيم، ثقيلاً أخضر اللون من الرطوبة، وفي حافته شقٌّ طويل كجرحٍ قديم لم يندمل.

كان أهل القرية يمرّون بجانب المدرسة كلّ يوم دون أن ينظروا إليها. لا لأنهم لا يحبّونها، بل لأنهم يحبّونها أكثر مما يحتملون. كانت فيها طفولتهم، وكلّما رأوها تذكّروا أنّ الطفولة لا تعود.

ثم جاءت سلمى. فتاةٌ في الرابعة والعشرين، حاصلةٌ حديثاً على دبلوم التربية، عُيّنت في مدرسةٍ بعيدة بالمركز ثم نُقلت إلى القرية دون أن تعرف لماذا. وصلت في أغسطس، تحمل حقيبةً وكتباً وأحلاماً صغيرة. وحين سألت عن المدرسة التي ستعمل فيها، أشار إليها الناس بصمتٍ نحو البناء المهجور.

وقفت أمام البوّابة الصدئة، وهمست: «أيعقل؟» ثم دخلت. كان الغبار يغطّي كلّ شيء. في أحد الفصول وجدت دفتر حضورٍ قديماً

مفتوحاً على صفحةٍ مكتوبٍ فيها أسماء، وآخر اسمٍ فيها بخطّ طفلٍ مرتجف: «أحمد عبد المنعم».

ثم سمعت الجرس يدقّ.

لم يكن أحدٌ في الساحة. لم تكن هناك ريح. دقّ الجرس ثلاث دقّاتٍ بطيئة، ثقيلة، ملأت الفراغ كلّه. خرجت إلى الساحة، فرأت أنّ الحبل يتأرجح، وأنّ الظلال تتجمّع في الفناء: ظلالٌ صغيرة بلا أجساد، شفّافة كالزجاج، تصطفّ في طوابير كما كان الطلبة يصطفّون في الصباح. كانوا يقفون صامتين، وعيونهم إلى السماء.

لم تصرخ سلمى. شيءٌ ما في هدوئهم جعلها تقترب. وقفت أمام الصفّ الأول وقالت، دون أن تعرف لماذا: «صباح الخير يا أولاد.»

تحرّكت الظلال كأنّها تضحك، وأجابها صوتٌ جماعيٌّ ناعم، يشبه أصداء غناءٍ بعيد: «صباح النور يا آنسة.»

عرفت في تلك اللحظة أنّ هذه ليست أشباحاً مخيفة، بل ذكريات. كلّ طفلٍ مرّ بتلك المدرسة ترك فيها جزءاً من ضوئه، ولم يعد يأخذه لأنه كبر وانشغل. وكان الجرس يجمعهم كلّ فجرٍ منذ

عشرين عاماً، فيقفون ويتمنّون أن يدخل أحدٌ ويعلّمهم، لأنّ ما لا يُعلَّم يبقى ناقصاً.

قضت سلمى الأسبوع الأول تنظّف. أخذت تكنس الغبار، وتسحب العناكب، وتغسل الأرض والجدران. وفي يوم الجمعة، جاءت الجارة العجوز، أمّ حنفي، تحمل لها وعاء شاي، وقالت دون مقدّمات: «أنتِ تعرفين أنّ هذا مكانٌ ملعون، أليس كذلك؟»

كانت تتحدّث إلى نفسها وهي تعمل، فتجد أحياناً أنّ أحداً يردّ عليها من بعيد بهمسٍ خجول. وفي الليل، في بيت الضيافة الذي أعطوها غرفةً فيه، كانت تستلقي وتفكّر: ماذا لو لم يكن الأمر سوى وحدةٍ تُحدث لنفسها أصواتاً؟ لكنّ الدفء الذي كان يصيبها كلّما وقفت في الساحة لم يكن وحدةً. كان شيئاً آخر، يشبه أن يعرفك أحدٌ قبل أن تعرف نفسك.

«لا يبدو ملعوناً،» قالت سلمى بهدوء.

ترددت المرأة، ثم همست: «ابني أحمد مات في هذه المدرسة. في الحريق الصغير الذي جرى منذ عشرين عاماً. كان في الصفّ الرابع.

أغلقوا المدرسة بعدها، وتركوها كالقبر.»

ارتجفت سلمى. تذكّرت الدفتر، والاسم الأخير: «أحمد عبد المنعم». سألت: «هل كان يحبّ القراءة؟»

جلست المرأة العجوز على الدرج الحجري، ومسحت وجهها بطرف طرحتها، وقالت بصوتٍ مبحوح: «لم أدخل هذه الساحة منذ يوم الدفن. كنت أخاف أن أسمعه وأعجز عن الردّ.» ولم تُجبها سلمى بشيء. مدّت يدها وأمسكت بيد المرأة، وجلستا معاً تنظران إلى الجرس الأخضر، وتحت النيم كان الظلّ يزداد كثافة.

«كان يحبّ أن يدقّ الجرس. كان يتسلّل مبكراً كلّ صباح ويدقّه.»

في الفجر التالي، وقفت سلمى أمام الجرس. أمسكت بالحبل بيدين مرتجفتين، وقالت بصوتٍ مسموع: «أحمد، أنا آنسة سلمى. أريدك أن تدقّه اليوم.» وتركت الحبل.

ارتفع الحبل وحده، ودقّ الجرس دقّةً مرحة، سريعة، بعكس الدقّات الثقيلة التي سمعتها قبلاً. ثم رأت ظلّاً صغيراً شفّافاً يقف بجانب الجرس ويبتسم. فتىً نحيل بقميصٍ مدرسيّ قصير الكمّين. نظر

إليها ومدّ يده ليصافحها، فلم تلمس يدُها شيئاً إلا هواءً بارداً، لكنّها شعرت بدفءٍ يتسلّل إلى قلبها.

بدأت تدرّس لهم. كانت تقف أمام السبّورة الفارغة، وتكتب بطباشير لا تراه عينا أحد غيرها، وتحكي لهم حكايات، وتعلّمهم القراءة التي لم يكملوها، والحساب الذي توقّف، والأغاني التي انقطعت. وكلّ يوم كانت الظلال تصبح أوضح قليلاً، وأقرب إلى الاكتمال، كأنهم يستعيدون ألوانهم شيئاً فشيئاً.

كانت تسألهم عن أحلامهم، فتجيبها الظلال بأصواتٍ متداخلة: أريد أن أصير طيّاراً. أريد أن أرى البحر. أريد أن أخبز مثل أمّي. وكانت تكتب كلّ حلمٍ على السبّورة، وتقول لهم: «هذا لا يضيع. الأحلام لا تموت، هي تنتظر من يحملها.» ثم تطلب من الأطفال الأحياء أن يقرؤوها بصوتٍ عالٍ، فيحملها كلّ واحدٍ منهم قليلاً، كأنهم يتقاسمون عمراً.

وبمرور الأسابيع، لاحظ أهل القرية أنّ المدرسة تضيء من بعيد في الفجر، وأنّ أصوات الأطفال تصل إلى بيوتهم كأنها قادمةٌ من حلمٍ جميل. وفي أحد الصباحات، دخل الحاج منصور، أكبر رجلٍ في

القرية، وقال لسلمى: «أريد أن أتعلّم. لم أكمل تعليمي أبداً.» ثم جاء آخر، ثم نساء، ثم أطفالٌ حقيقيون من لحمٍ ودم.

وفي ذلك الشتاء، أصبحت مدرسة الشيخ مسعود الابتدائية تعجّ بأربعين تلميذاً أحياء، وسط ظلالٍ لا تُرى إلا بعيونٍ تعرف أن تنظر. وصُلح الشقّ في الجرس بلحامٍ بسيط من حدّاد القرية، فصار صوته أصفى وأطول.

وفي اليوم الأخير من العام الدراسي، وقفت سلمى في الساحة وقالت للأطفال الأحياء والظلال معاً: «هل تعلمون أنّ التعليم ليس تلقين الكتب، بل إعادة الناس إلى أنفسهم؟» ثم دقّت الجرس، فارتفع صوته فوق الحقول، وفوق النيل، وفوق الأيام. ولم يبقَ ظلٌّ واحدٌ في الفناء. كانوا قد غادروا، مكتملين، ليعيشوا عمراً لم يُمنحوا فرصته. وبقي على السبّورة شيءٌ لا يمحوه أحد، بخطٍّ طفوليٍّ مرتجف: «شكراً يا آنسة.»

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app